

التشفير الأدبي

أ. محمد اسباعي

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

- جامعة أحمد بن بلة - وهران¹

مدخل:

إن كنوز اللغة العربية وآدابها لا تتحصر في فن ولا كتاب ولا زمان، بل هي كثيرة متنوعة، وكلما غاص المطلع في أغوار كتبها إلا استخرج الحل والدرر الكثيرة. ومما زاد بلاغة اللغة العربية جمالا وسحرا علم البديع الذي حسن أوجه الكلام العربي اللفظية والمعنوية. ومن جميل المحسنات المعنوية التي استعملها العرب 'التورية'.

"والتورية وتسمى الإيهام أيضا وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد به البعيد منهما"⁽¹⁾. ولقد استعمل العرب هذا اللون البديعي على نطاق واسع خاصة للخروج من المواقف الحرجة. بل نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمله، فلقد نقل أهل السير: "ركب النبي صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك. قال: أذاك بذاك. قال: نعم. قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغني أن قريشا خرجوا

يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش. فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن من ماء⁽²⁾. ثم انصرف عنه. قال يقول: ما من ماء. أمن ماء العراق؟⁽³⁾

" وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل. قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير"⁽⁴⁾.

وبحثنا هذا لإلقاء الضوء على مجال دقيق من مجالات التورية، وهو مجال الرسائل، أي أن ترسل كلاما تريد أن يفهمه البعض دون البعض، فتورّيه. وسمّى اللغويون هذا النمط بأسماء، منها: الإيهام، والتعمية، واللحن. وسمّي في وقتنا هذا بالاسم العالمي الذي هو 'التشفير'.

تعريفات:

"ذكر العلماء أنواعا من سبل إخفاء المعلومات وسترها قد عرفتها الحضارة المصرية على ضفاف النيل في حدود عام 1900 قبل الميلاد، وتداولتها الحضارات الأخرى المجاورة.

واصطنع العرب في جاهليتهم الرمز والملاحن والمعارض وأمثالها، ليخفوا معانيهم ومراميهم، فلا يفهم عنهم إلا الفطن ذو النباهة. فلما جاء الإسلام واستبحر العمران وازدهرت الحضارة العربية وتشابكت مصالح الدولة التي امتدت أطرافها وكثرت صلاتها بالدول الأخرى تهيأت الأسباب المسعفة ليخطو العرب خطوات فساحا، فيبدعوا في طرائق إخفاء أغراضهم

ومقاصدهم ويسلكوا في سبيل ذلك أساليب متنوعة مبتكرة، فيها الرمز والألغاز والملاحن والتعمية والمحاجة والمعاينة والتورية وما إليها⁽⁵⁾.
وسمي باللحن؛ "لأنّ اللحن عند العرب الفطنة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض)⁽⁶⁾ أي أفطن لها، وأغوص عليها. وذلك أن أصل اللحن عند العرب أن تريد الشيء فتوري عنه بقول آخر".⁽⁷⁾ "ومنه قول عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : عجبت لمن لحن الناس كيف لا يعرف جوامع الكلم! أي فاطنهم. ويقال قد لحن الرجل يلحن لحناً فهو لحن إذا أخطأ، ولحن يلحن لحناً فهو لحن إذا أصاب وفطن، وأنشد:

حديث ألدّه هو ممّا ❖ تشتهيه النفوس يوزن وزناً
منطق صائب وتلحن أحيا ❖ نا وخير الحديث ما كان لحناً

معناه: وتصيب أحياناً.

وقال معاوية للناس: كيف ابن زياد فيكم؟ قالوا: ظريف على أنه يلحن. قال: فذاك أظرف له. ذهب معاوية إلى اللحن الذي هو الفطنة، وذهبوا هم إلى اللحن الذي هو الخطأ. ويقال: لحت له لحناً، إذا قلت له قولاً يفهمه عنك ويخفى على غيره؛ ولحنه عني لحناً، أي فهمه، وألحته أنا إياه إلحاناً، وهذا مذهب أبي بكر بن دريد في تفسير قول الشاعر:

'منطق صائب وتلحن أحياناً' قال: يريد: تعوص في حديثها فتزيه عن جهته لئلا يفهمه الحاضرون، ثم قال: 'وخير الحديث ما كان لحناً' أي خير الحديث ما فهمه صاحبك الذي تحب إفهامه وحده وخفى على غيره. قال: وأصل اللحن أن تريد الشيء، فتوري عنه بقول آخر⁽⁸⁾.

وأما التعمية: فلقد "استعمل العرب مصطلح التعمية كناية عن عملية تحويل نص واضح إلى نص غير مفهوم باستعمال طريقة محددة، يستطيع من يعرفها أن يعود ويفهم النص. لقد درج في أيامنا هذه استعمال كلمة ((التشفير)) بدلا من كلمة التعمية، وهي وافدة من اللغات اللاتينية Cipher والتي جاءت من كلمة عربية التجار هي ((الصر)) وهو ما أشارت إليه كثير من المراجع. لقد أدخل العرب مفهوم الصفر في الحساب، وطوروا استعماله على نحو واسع، وهذا ما لم يعرفه الغرب في العصور الوسطى لاستعماله الأرقام اللاتينية (I، II، III، VI) التي لا وجود للصفر في نظامها الرقمي، وحينما دخلت الأرقام العربية (0، 1، 2، 3، 4..) العالم الغربي بدا مفهوم الصفر غاية في الإبهام والتعمية، فكان أن شاع مثل في اللغة اللاتينية يستعمله المتكلم عندما يريد أن يقول: إنه يتكلم عن أمور مفهومة لا عن شيء مبهم معمم ك ((الصر)) ومن هنا جاءت فكرة الكلمة ((الصر)) Cipher في جميع اللغات الأوروبية للدلالة على التعمية التي طور العرب عملياتها ودرسوا خصائصها حتى أعطوها طابع العلم.⁽⁹⁾

هذه المقدمات تؤكد لنا أن العالم منذ القدم عرف الشفرة السرية أو التشفير، خاصة في نقل الأخبار أثناء المعارك، فإذا كانت هناك ضرورة لنقل الأخبار بين الجيوش أو بين الأمراء والجند وخيف أن يطلع عليها العدو فتتكشف الخطط والخدع الحربية، فإنهم يرسلون الأخبار والأوامر بطريقة مشفرة، وحتى لو اطلع عليها العدو فإنه لا يفهما؛ لأنها تكون رموزا غامضة لا يعرفها إلا المرسل والمرسل إليه. وقد يسمى هذا الفن بعلم التعمية.

إذن: التعمية أو التشفير يتناولها علم التشفير، وهي عملية تحويل المعلومات (التي تكون بشكل نص بسيط عند التخزين على وسائط التخزين المختلفة)

أو عند نقلها على شبكات نص مجرد)، بحيث تصبح غير مقروءة لأحد باستثناء من يملك معرفة خاصة أو مفتاح خاص لإعادة تحويل النص المشفر إلى نص مقروء. عملية الفك هذه تتم عن طريق ما يدعى مفتاح التشفير. نتيجة عملية التشفير تصبح المعلومات مشفرة وغير متاحة لأي أحد؛ لأغراض سرية عسكرية أو سياسية أو أمنية. تعاكس هذه العملية عملية فك الشفرة وهي عملية استخدام المفتاح لإعادة النص المشفر إلى نص مقروء.

ثم تطورت عبر الزمن، فالتعمية اليوم تستخدم من قبل القوات العسكرية والحكومات لتسهيل الاتصالات السرية. وأيضا لتأمين سرية الاتصال بين وحدات مدنية مثل: شبكات الحاسوب، الإنترنت، التجارة الإلكترونية، الهاتف النقال، بلوتوث...إلخ. وأيضا في إدارة الحقوق الرقمية لحصر استخدام المواد المحفوظة الحقوق. وأيضا في البرمجيات لحمايتها من قرصنة البرمجيات والهندسة العكسية.⁽¹⁰⁾

"الطرق الأساسية للتشفير (التعمية):"

عرفت التعمية في تاريخها الطويل عدة طرق، يمكن إرجاع معظمها إلى إحدى طريقتين هما:

1- تعمية المعاني بالتورية: وهي لا تتبع قواعد محددة، بل تعتمد على فطنة المتراسلين وخبرتهم وثقافتهم، وهي إلى العمل الأدبي أو البديعي أقرب منها إلى التعمية.

2- التعمية بمعالجة الحروف: وتقوم على اتباع طرق تلزم قواعد محددة تخص كلا منها، ويمكن تقسيمها إلى أربعة طرق رئيسية هي:

أ- التعمية بالقلب: وتكون بتغيير مواقع حروف الرسالة وفق قاعدة معينة، ويمكن أن يُمثَّل بقلب حروف كل كلمة ضمنها، فنعمي «محمد والد علي» على الشكل التالي «دمحم دلاو يلح».

ب- التعمية بالإعاضة أو التبديل: وطريقتها أن يبدل بكل حرف حرفاً أو رمز آخر وفق قاعدة محددة، كأن يستبدل بكل حرف الحرف الذي يليه حسب ترتيب الحروف الأبجدي، فتستبدل الباء بكل ألف، والجيم بكل باء، والدال بكل جيم ... وهكذا إلى أن تنقضي الحروف، فنعمي «محمد والد علي» على الشكل التالي «نظنه زيمه فمك».

ت- التعمية بزيادة حروف أو كلمات أغفال أو بحذف حروف: مثال ذلك أن تزيد حرف القاف مثلاً بعد كل ميم، وحرف الشين بعد كل لام... إلخ. فنعمي «محمد والد علي» على الشكل التالي «مقحمقد والشد علشي».

ث- التعمية المركبة: وتكون باستعمال الطريقتين الأولى والثانية، منها تعمية الجملة «محمد والد علي» كانت الترجمة «هنطن همبز كمف»⁽¹¹⁾.

وبحثنا هذا يبحث الطريقة الأولى للتشفير وهي: تعمية المعاني بالتورية. ولقد ذكرنا أن هذه الطريقة لا تتبع قواعد محددة، بل تعتمد على فطنة المتراسلين وخبرتهم وثقافتهم، وهي عمل إنما يدل بالأساس على البراعة الأدبية البديعية للمتراسلين.

ولقد ألف ابن دريد كتاباً سماه 'الملاحن' بيّن فيه الوسائل اللفظية المعنوية المستعملة في عملية التشفير، قال في مقدمته: "هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المجبر المضطهد على اليمين، المكره عليها، فيعارض بما رسمناه، ويضمّر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم، ويتخلص من جنف الغاشم وسميناه «كتاب الملاحن» واشتققنا هذا الاسم من اللغة العربية الفصيحة".⁽¹²⁾

ونذكر مما أورد ابن دريد في كتابه أمثلة لصيغ التشفير، على سبيل التمثيل لا الحصر، منها:

- والله ما سألت فلانا حاجة قط. فالحاجة ضرب من الشجر له شوك، والجمع حاج.

- وتقول: والله ما رأيت فلانا قط كلمته. فمعنى رأيت فلانا: ضربت رثته. ومعنى كلمته: جرحته.

- وتقول: والله ما أعلمت فلانا ولا أعلمني. أي ما جعلته أعلم، أي شققت شفته العليا⁽¹³⁾.

ومن أمثلة التشفير ما ذكره ابن حمدون في تذكرته: "كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: أنت عندي كسالم، فلم يدر ما هو، فكتب إلى قتيبة يسأله، فكتب إليه: إن الشاعر يقول: لمن الطويل]

يديروني عن سالم وأديرهم ♦ وجلدة بين العين والأنف سالم

وكتب إليه مرة أخرى: أنت عندي قدح ابن مقبل، فلم يدر ما هو، فكتب إلى قتيبة فكتب إليه قتيبة: إن ابن مقبل نعت قدحا له فقال: لمن الطويل]

غدا وهو مجدول وراح كائه ♦ من المش والتقليب بالكف أفتح

خروج من الغمى إذا صكّ صكة ♦ بدا والعيون المستكفة تلمح

المش: المسح، ومنه: نمش بأعراف الجياد أكفنا، ومنه قيل: لمنديل الغمر مشوش.

ومن كنايات الفقهاء في الأيمان: قال بعض الشيعة لبعض الخوارج: أنا من علي ومن عثمان بريء. فظاهر كلامه البراءة منهما، وأراد: أنا من علي وإليه، أتولاه، وبريء من عثمان وحده.

ورسمت الفقهاء في أيمانهم عند الشيء يتوقّى شرّه، أو لإصلاح أمر معاد أو معاش. فمن ذلك:

- كلّ ما لا أملكه - على أنه لاحن - ومعناه ما لن أملكه.
- وقولهم: واللاه ما فعلت، على فاعل من اللهو، وأشباه ذلك على أن ينويه الإنسان بضميره ويتحرّى قصده.
- ويقال: ما رأيت فلانا: أي ما ضربت رثته؛ ولا كلمته من الكلوم، على تكرر الفعل.⁽¹⁴⁾

"ومن ذلك قولهم: تركت فلانا يأمر وينهي وهو على شرف الموت، أي يأمر بالصوية وينهي عن النوح. ويقال: ما رأيت فلانا، أي ما ضربته في رثته، ولا كلمته، أي ما جرحته، فإن الكلوم الجراح. وما رأيت ربيعا، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافرا ولا فاسقا، فالكافر السحاب، والفاسق الذي تجرد من ثيابه. وما رأيت فلانا راكعا ولا ساجدا ولا مصليا، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق. وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجا، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة. وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا، فالبقرة العيال الكثيرة، يقال: جاء فلان يسوق بقره، أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الأقط".⁽¹⁵⁾

أسباب التشفير:

للتشفير أسباب عديدة، من أهمها: رسائل الحروب السرية للخوف من أن يطلع عليها الأعداء، وكذلك عند الخوف من باطش، أو الرسائل بين العشاق عند الخوف من أن يطلع عليها الأهل، أو الحياء ممن يستحيى منه، أو ضرب المواعيد الخفية، أو لاختبار الذكاء والفتنة وسرعة البديهة، وغيرها. وبالمثال

يتضح المقال، فسنذكر بعض الأسباب الداعية إلى تشفير الرسائل مع ذكر أمثلتها التي تناقلها العرب وبثها الأدباء في بطون كتبهم.

- في الحروب:

"كقول رجل من بنى العنبر كان أسيراً في بكر بن وائل، فسألهم رسولاً إلى قومه، فقالوا له: لا ترسل إلا بحضرتنا، لأنهم كانوا أزمعوا غزو قومه فخافوا أن ينذر عليهم، فجاء بعد أسود فقال له: أتعل؟ قال: نعم إني لعقل، قال: ما أراك عاقلاً؛ ثم قال: ما هذا؟ - وأشار بيده إلى الليل - فقال: هذا الليل؛ فقال: أراك عاقلاً؛ ثم ملأ كفيه من الرمل فقال: كم هذا؟ فقال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما أكثر، النجوم أو النيران؟ فقال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية وقل لهم: ليكرموا فلانا - يعني أسيراً كان في أيديهم من بكر بن وائل - فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم: إن العرفج قد أدبى، وق شكت النساء؛ وأمرهم أن يعرفوا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلت معكم حبساً؛ واسألوا الحارث عن خبري. فلما أدّى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب؛ ثم سرحوا العبد ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذرکم. أما قوله: قد أدبى العرفج، فإنه يريد أن الرجال قد استلأموا، أى لبسوا الدروع؛ وقوله: شكت النساء، أى اتخذن الشكاء للسفر؛ وقوله: ناقتي الحمراء، أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان وهو الجمال الأصهب؛ وقوله: بآية ما أكلت معكم حبساً، يريد اخلاطاً من الناس قد غزوكم، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط. فامتثلوا ما قال وعرفوا فحوى كلامه فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

وأخذ هذا المعنى أيضاً رجل من بنى تميم كان أسيراً فكتب إلى قومه:
 حلوا عن الناقة الحمراء أرحلكم ♦ والبازل الأصهب المعقول فاصطنعوا
 إن الذئب قد اخضرت براثها ♦ والناس كلهم بكر إذا شبعوا

يريد أن الناس كلهم إذا أخصبوا عدو لكم كبكر بن وائل".⁽¹⁶⁾
 "وأسرت طيء غلاماً من العرب فقدم أبوه ليفديه فاشتطوا عليه، فقال أبوه:
 والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندي غير ما بذلته
 ثم انصرف. وقال: لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه. فكأنه قال له:
 الزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيء، ففهم الإبن ما أراد أبوه وفعل
 ذلك فنجى.⁽¹⁷⁾

- الخوف من البطش:

"دخلت امرأة على هرون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا
 أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك، لقد حكمت
 فقسطت. فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت
 رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر
 الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من
 أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً.
 قال: ما أظنكم فهمتم ذلك. أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن
 الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما آتاك
 فأخذته من قوله تعالى (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)⁽¹⁸⁾، وأما قولها
 وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ♦ ترقب زوالاً إذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)⁽¹⁹⁾. فتعجبوا من ذلك".⁽²⁰⁾

"وحكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له: أطلال الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومي قبل يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك. فأحسن إليه وأجاره على دعائه وأمر له بصلة. وكان ذلك دعاء عليه؛ لأن معنى قوله أطلال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية، وأما قوله وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها أي أعماها، وأما قوله وجعل يومي قبل يومك أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار، وأما قوله إنه ليسرني ما يسرك فإن العافية تسره كما تسر الآخر. فانظر إلى الاشتراك وفائدته ولولا الاشتراك ما تهيأ لمستمر مراد، ولا سلم له في التخلص قياد".⁽²¹⁾

"وحكي أن بعض الملوك طلع يوما إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحته منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها: لمن هذه؟ فقالت يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز. قال: فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيزروز، وقال له: يا فيروز. قال: لبيك يا مولاي. قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية واثنتي بالجواب. فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه وجهاز أمره وبات ليلته، فلما أصبح ودّع أهله وسار طالبا لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك. وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه متخفيا إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعا خفيفا. فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك. ففتحت له فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا. فقال: زائر. فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة وما أظن فيها

خيرا. فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني. فقالت: بل عرفتك يا مولاي ولقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير ورد ♦ وذلك لكثرة الورد فيه

إذا سقط الذباب على طعام ♦ رفعت يدي ونفسي تشتهي

وتجتب الأسود ورود ماء ♦ إذا كان الكلاب ولغن فيه

ويرجع الكريم خميص بطن ♦ ولا يرضى مساهمة السفه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شفه الغرام بنا ♦ وصاحب الغدر غير مصحوب

والله لا قال قائل أبدا ♦ قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه. قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنسي نعله في الدار. هذا ما كان من الملك، وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه في رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاما، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهياً هدية حسنة وأتى إلى زوجته فسلم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك. قالت: وما ذاك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرني لأهلك ذلك. قالت: حبا وكرامة، ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها شهر فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها

وقال له: يا فيروز إما أن تخبرنا بسبب غضبك وإما أن تحاكمنا إلى الملك. فقال: إن شئتكم الحكم فافعلوا، فما تركت لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسا إلى جانبه فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة أي أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره. فالتفت القاضي إلى فيروز وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان. فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لردّه. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه وإنما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان إكراما للأسد. قال: وكان الملك متكئا فاستوى جالسا. وقال يا فيروز ارجع إلى بستانك آمنا مطمئنا فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ولا شيئا ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس ووالله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره. قال: فرجع فيروز إلى داره وردّ زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك".⁽²²⁾

السرية والإخفاء:

"حكى أن المأمون ولّى عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلا من أرباب دولته ليمتنحه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه، فأكرم نزله وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده؛ ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة، فكتب كتابا فيه بعد الشاء على أمير المؤمنين

أما بعد ، فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم ، عاملا بالحزم ، قد عدل بين رعيته وساوى في أفضيته ، أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد ، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد ، وعمرّ منهم المساجد الدائرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة ، وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه ، والسلام . فكان معنى قوله آخذا بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال . وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أفضيته أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير . وقوله عمرّ منهم المساجد الدائرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئا من الدنيا . ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم . فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقتته وولى عليهم غيره .⁽²³⁾

"ومن ذلك ما حكى أن القاضي الفاضل كان صديق خصيص به ، وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين ، وكان فيه فضيلة تامة ، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهم بقتله ، فتسحب إلى بلاد التتر وتوصل إلى أن صار وزيرا عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه ، فلما بلغه ذلك نذر منه ، وقال للفاضل اكتب إليه كتابا عرفه فيه أنني أرضى عليه ، واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه . فتحير الفاضل بين الاثنين ، صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته ، فكتب إليه كتابا واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب فشدد 'إن' ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية

الكمال وما فهم 'إن'، وكان قصد الفاضل (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ⁽²⁴⁾) فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلا فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفا وأراد بذلك (إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا⁽²⁵⁾) فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.⁽²⁶⁾

- الرسائل بين العشاق:

"وروي أنّ جميلا أراد زيارة بثينة فلقى أعرابيا من بني حنظلة، فقال له: هل لك في خير تصطنعه إليّ؟ فإن بيني وبين هؤلاء القوم ما يكون بين بني العمّ، فإن رأيت أن تأتيهم فإنك تجد القوم في مجلسهم فتنشدهم بكرة آدماء تجر خفّها غفلا من السّمرة، فإن ذكروا لك شيئا فذاك، وإلا استأذنهم في البيوت وقل: إنّ المرأة والصبيّ قد يريان ما لا يرى الرجال، فتنشدهم، ولا تدع أحدا تصيبه عينك عنك، ولا بيتا من بيوتهم إلا نشدتها فيه. قال الرجل: فأتيت القوم فإذا هم في جزور يقسمونها، فسلمت وفعلت ما قال، واستأذنهم في البيوت فأتيتها بيتا بيتا فلم يذكروا شيئا حتى انتصف النهار، وفرغت من البيوت، وذهبت لأنصرف، فإذا بثلاثة أبيات، فقلت: ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم، ثم تدممت فانصرفت عائدا إلى أعظمها بيتا فذكرت لهم ضالّتي، فقالت جارية منهم: يا عبد الله، ما أظنّك إلا قد اشتدّ عليك الحرّ واشتهيت الشراب، قلت: أجل، قالت: ادخل. فأضافتني وأكرمت، فأتيت عليها ثم قلت: يا أمة الله، هل ذكرت في ضالّتي ذكرًا؟ قالت: أترى هذه الشجرة فوق الشرف؟ قلت: نعم، قالت: فإنّ الشمس غربت أمس وهي تطيف حولها، ثم حال الليل بيني وبينها. فرجع الرجل إلى جميل فعرف لحن الكلام وأتاها ليلا فحادثها.

وروي أن لقاءها تعذر عليه لمراعاة أبيها وزوجها لها. فنزل بهم قوم من قريش فأحسن قراهم، فقال له أحدهم: هل لك حاجة؟ قال: نعم، تنزل بأبي بثينة وتبيت عنده، فإذا وجدت غفلة قلت له: إن لي غريما وعدني وحلف لي ألا أطلبه ولا أرسل إليه إلا أتاني وقد طال مطله إليّ، وهو رجل منكم، وأريد أن تعينني عليه، فإنها ستجيبك بوعد تحصّله لي. ففعل القرشيّ ذلك، وخاطب أباهما به، فقالت بثينة: يا أبة، قد رأيت هذا الفتى القرشيّ ملازما لرجل يطالبه بحقّ له في وقت مساء تحت شجرات بأعلى الوادي، ولست أعرف الرجل بعينه لأنه كان في وقت مظلم، فقال له أبوها: إذا غدوت عليه وطالبته عاونتك وكرامة. فلما أصبح مضى إلى جميل فأخبره الموعد فتوافيا فيه".⁽²⁷⁾

"خرج رجل على سبيل الفرجة فقعد على الجسر، فأقبلت امرأة من جانب الرصافة متوجهة إلى الجانب الغربي فاستقبلها شاب فقال لها: رحم الله علي بن الجهم. فقالت المرأة في الحال: رحم الله أبا العلاء المعري. وما وقفا ومرا مشرقة ومغرباً. فتبعت المرأة وقلت لها: إن لم تقولي ما قلتما وإلا فضحتك وتعلقت بك. فقالت: قال لي الشاب رحم الله علي ابن الجهم أراد به قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر ♦ جلمن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت أنا بترحمي على المعري قوله:

فيا دارها بالحزن مزارها ♦ قريب ولكن دون ذلك أهوال⁽²⁸⁾

- الحياء من الإفصاح:

"عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن معن، قال: أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه إليك، وهو يقوم بطاعة الله عز وجل. فقال لها: جزاك الله خيرا من مُتّية على زوجها.

فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب، وكان كعب بن سور الأزد حاضرا، فقال: اقض يا أمير المؤمنين بينها وبين زوجها. قال: وهل فيما ذكرت قضاء؟ فقال: إنها تشكو مباحة زوجها عن فراشه وتطلب حقها في ذلك.

فقال له عمر: أما إن فهمت ذلك فاقض بينهما.

فقال كعب: عليّ بزوجه.

فأحضر، فقال: إن امرأتك هذه تشكوك.

فقال: هل قصرت في شيء من نفقتها؟ قال: لا.

فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رشده ♦ ألهي خليلي عن فراشي مسجده

نهاره وليله ما يرقده ♦ فلست في حكم النساء أحمدته

زهده في مضجعي تعبه ♦ فاقض القضا يا كعب لا تردده

قال: فقال زوجها:

زهدي في فرشها وفي الحجل ♦ أني امرؤ أذهلني ما قد نزل

في سورة النمل وفي السبع الطول ♦ وفي كتاب الله تخويف جل

فقال كعب:

إن لها حقا عليك يا رجل ♦ تصيبها في أربع لمن عقل

قضية من ربنا عز وجل ♦ فأعطها ذاك ودع عنك العلل

إن خير القاضي من عدل ♦ وقضى بالحق جهرا وفصل

ثم قال: إن الله تعالى قد أباح لك من النساء أربعاً فلك ثلاثة أيام ولياليها تعبد فيها ربك، ولها يوم وليلة.

فقال له عمر: والله ما أدري من أي أمريك أعجب؟ أمن فهمك أمرهما أم من حكمك بينهما؟ اذهب فقد وليتك قضاء البصرة".⁽²⁹⁾

- فضح حامل الرسالة للمرسل إليه:

"أن رجلاً تزوج امرأة وبعث إليها ثلاثين شاة وزقّ خمر، فذبح الرسول شاة وشرب بعض الزق، فلما أتى المرأة علمت أن الرجل لم يبعث إلا ثلاثين شاة وزقاً مملوءاً خمرأ، فقالت له: قل لصاحبك إن سحيماً قد رثم وإن رسولك جاءني في المحاق. فلما أتاه بالرسالة قال: يا عدوّ الله ذبحت من الشاة شاة وشربت من رأس الزق. أرادت أن ليلة تسع وعشرين هي ليلة المحاق. ورثم: كسر فوه. والرثم بياض الشفة العليا هذا أصله ثم استعمل في الهم. وسحيم كناية عن الزق".⁽³⁰⁾

"ومن أغرب ما ورد في هذا الباب أن بكراً وتغلب لما سئموا الحرب وطال ذلك عليهم اتخذ مهلهل بن ربيعة عبيدين فكان يغير بهما على قبائل بكر فسئم العبدان أيضاً ذلك فأجمعا على قتل سيدهما. فلما تيقن مهلهل أنهما قاتلاه قال إن كنتما لأبد فاعلين فأبلغا الحي وصيتي ثم أنشأ يقول:

من مبلغ الأحياء أن مهلهلاً ♦ لله دركمو ودرّ أبيكمو

فقتلاه ثم رجعا إلى الحي فقالا إن مهلهلاً مات ودفناه بموضع كذا، قالوا فهل وصى بشيء قال نعم. قال وأنشدوا البيت فلم يدر القوم ما معنى ذلك حتى أتت ابنته وكانت غائبة عند زوجها في بعض الأحياء فأنشدوها ما قال أبوها فقالت إن أبي يخبركم أن العبيدين قتلاه، ثم قالت إنما أراد

من مبلغ الأحياء أن مهلهلاً ♦ أمسى صريعاً في الضريح مجدلاً

لله دركمو ودرّ أبيكمو ♦ لا يبرح العبدان حتى يقتلا".⁽³¹⁾

"وحكي إن شاعرا كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة فقال له: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني أمض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البنتان إن أباكما. فقال: سمعا وطاعة. ثم إنه قتله فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما. أجابتا بضم واحد: قتيل خذا بالثأر ممن أتاكما. ثم تعلقتا بالرجل ورفعته إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله".⁽³²⁾

"وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له، فاستكثر الشعبي فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا. فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة وقال: إذا رجعت إلى صاحبك أبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادفع إليه هذه الرقعة. فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما أحاج إلى ذكره ونهض من عنده، فلما خرج ذكر الرقعة فرجع فقال: يا أمير المؤمنين أنه حملني إليك رقعة نسيته حتى خرجت وكانت في آخر ما حملني. فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك. قال: فأمر برده. فقال: أعلمت ما في هذه الرقعة؟ قال: فيها عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا، أفتردي لم كتب إلي بمثل هذا؟ فقال: لا. فقال: حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك. فقال الشعبي: لو كان رأيك يا أمير المؤمنين ما استكثرني. فبلغ ذلك ملك الروم ففكر في عبد الملك فقال: لله أبوه، والله ما أردت إلا ذلك!"⁽³³⁾

خاتمة:

إنّ التشفير الأدبي يعطينا لمحة بسيطة عن الروعة البديعية الجميلة للغة الضاد، وأن المفاهيم السهلة المباشرة التي تدل عليها الألفاظ العربية الفصيحة، يستطيع من تبحّر في علوم اللغة وفنونها أن يحوّل هذه السهولة في وضوح المعاني وجلائها إلى نوع من الصعوبة والغمق، بأن يضيف عليها نوعاً من الإبهام والغموض، وهذا الغموض لا يكون دائماً مذموماً، بل يكون ذلك مدعاة إلى زيادة في عمق التفكير، واختباراً وتدريباً للبديهة على الغوص في معاني الألفاظ وكشف ما وراء السطور، كما يزيد هذا اللون البديعي للغة العربية رونقاً وجمالاً وسحراً. وحرى بنا أن نعود إلى لغتنا دراسة وتحليلاً لتتعرف على كنوزها فنزداد لها حباً وبها تمسّكاً.

- الهوامش:

- 1- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن سعد الدين القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط4، 1998م، ص331.
- 2- يقصد قوله تعالى: (خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) سورة الطارق، الآيتين 6-7.
- 3- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام، ت: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411هـ، ج3، ص163.
- 4- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وقدموها المدينة وبنائه بها، ج5، ص62، رقم 3911.
- 5- علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، د. محمد مراياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيار، تقديم: د. شاكر الفحام، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ص3.

- 6- الحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها). كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، ج3، ص180، رقم2680.
- 7- كتاب الملاحن، محمد بن الحسن بن دريد، ت: د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1992م، ص64.
- 8- الأمالي، أبو علي القالي، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1344هـ/1926م، ج1، ص6.
- 9- علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، ص28.
- 10- تعمية <https://ar.wikipedia.org/wiki/تعمية>
- 11- علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، ص42.
- 12- كتاب الملاحن، ص63.
- 13- كتاب الملاحن، ص64.
- 14- التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، ت: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط1417هـ/1996م، ج8، ص286.
- 15- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبهشي، ت: دمفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ج1، ص100.
- 16- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ت: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2004م، ج3، ص146.
- 17- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، ج1، ص181.
- 18- سورة الأنعام، الآية44.
- 19- سورة الجن، الآية15.
- 20- هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1996م، ص71.
- 21- المستظرف، ج1، ص102.

- 22- المستطرف، ج1، ص104.
- 23- ثمرات الأوراق، ابن حجة الحموي، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة، مصر، ج2، ص227.
- 24- سورة القصص، الآية20.
- 25- سورة المائدة، الآية24.
- 26- المستطرف، ج1، ص103.
- 27- التذكرة الحمدونية، ج8، ص287.
- 28- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م، ج1، ص324.
- 29- الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار، ت: سامي مكى العاني، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1416هـ/1996م، ص251- 252.
- 30- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، ج1، ص26.
- 31- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، نسخه وصححه ونقحه وحقق ما فيه واستخرجه من بطون دواوين العلم: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص26.
- 32- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ت: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ج1، ص404.
- 33- أخبار الأذكىاء، عبد الرحمن بن الجوزي، اعتناء: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص67.